هويّة الكتاب

لمحات إجتماعية من تاريخ العراق الحديث

المجلد الأول

تأليف ..... الدكتور علي الوردي

الناشر ..... دار الكتاب الإسلامي

الطبعة ..... الأولى

السنة ..... ٢٠٠٥ م - ١٤٢٦ هـ ق

المطبعة ..... ستار

الكمية ..... ٢٠٠٠ دورة

الترقيم الدولي للمجموعة: ISBN: 964 - 465 - 146 - 4

الترقيم الدولي ج ١: ISBN: 964 - 465 - 147 - 2

جميع حقوق الطبع مسجّلة ومحفوظة للناشر

www.ketab.ir

لمحات اجتماعية

من تاريخ العراق الحديث

الجزء الاول

من بداية العهد العثماني حتىٰ منتصف القرن التاسع عشر

تأليف

الدكتور علي الوردي

استاذ علم الاجتماع

بجامعة بغداد

www.ketab.ir

مقدمة الكتاب

عند دراستي للمجتمع العراقي ـ وهو الموضوع الذي أولعت به زمناً غير قصير ـ أدركت أني لا أستطيع أن أفهم المجتمع في وضعه الراهن مالم أفهم الأحداث التي مرت به في عهوده الماضية ، فكل حدث من تلك الأحداث لابد أن يكون له شيء من التأثير قليلاً أو كثيراً في سلوك الناس حالياً وفي تفكيرهم .

من الممكن تشبيه المجتمع في هذا الشأن بشخصية الإنسان البالغ إذ هي في حاضرها تتأثر بما حدث لها في ماضيها ، وهذا التأثير قد يكون لا شعورياً إنّما هو موجود على أي حال وهو قد يظهر بمظهر العقدة النفسية التي تدفع الإنسان نحو بعض الأفعال «السخيفة» إذ هو يفعلها مرغماً بتأثير حافز لا إرادي يسيطر عليه . أكاد أعتقد أن المجتمع لا يختلف عن الفرد في هذا ، فكثيراً ما تخلق الأحداث الماضية في المجتمع عقدة كالعقدة النفسية حيث نرى الناس يندفعون ببعض العادات والأفكار الموروثة اندفاعاً لا شعورياً ، وقد يؤدي ذلك بهم الى المهالك بينما هم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . وسوف نرى في هذا الكتاب نماذج واقعية من هذا الطراز .

اقتصرت في هذا الكتاب على دارسة الأحداث التاريخية منذ بداية العهد العثماني ، وكنت أود أن أدرس ما قبل ذلك لأنّ عهود التاريخ في الواقع مترابطة ومتشابكة ، وان كل عهد منها يصعب فهمه بغير الرجوع الى دراسة ما قبله ، ولكني وجدت أن ذلك يشبه أن يكون مستحيلاً من الناحية العلمية إذ هو يضطرنا الى استقراء الأحداث الماضية خطوة وراء خطوة حتى نصل بها الى أبينا آدم . . .

قد يصح القول إن دراسة العهد العثماني هي أشد الدراسات علاقة بواقع مجتمعنا

www.ketab.ir

الراهن ، فنحن لا نزال نعيش في تراثه الاجتماعي ولا يزال الكثيرون منا يفكّرون علىٰ نمط ما كانوا يفكرون عليه في ذلك العهد ، وقد أدركت في صباي أُناساً يحنّون اليه ويترنمون بأمجاده ويتمنّون أن يعود اليهم .

الاجتماع والتاريخ :

كنت قد حاولت في كتابي السابق [١] دراسة ما كان عليه العراق في العهد العثماني من وضع اجتماعي عام ، وسأحاول الآن دراسة الأحداث التاريخية التي وقعت في ذلك العهد ، ولا حاجة بي الىٰ القول إن هذين الأمرين مترابطان ترابطاً وثيقاً يصعب الفصل بينهما ولهذا سوف يجد القاريء في الكتاب الحالي كثيراً من التحليل الاجتماعي كمثل ما وجد في الكتاب السابق كثيراً من السرد التاريخي .

إنّ هذا الكتاب علىٰ أي حال يشبه أن يكون كتاب تاريخ بيد أنه يختلف عن كتب التاريخ المعتادة بكونه لا يهتم بالأحداث الماضية لذاتها علىٰ منوال ما يفعل المؤرخون بل هو يهتم في الدرجة الأُولىٰ بما تنطوي عليه الأحداث من دلالة فكرية واجتماعية ، أما الاستقراء التاريخي فيأتي في أهميته بالدرجة الثانية .

اني لست مؤرخاً إنما أعتمد فيما أكتبه علىٰ المؤرخين ، وقد عانيت في ذلك صعوبة غير قليلة إذ أن تاريخ العراق في العهد العثماني لا يزال يكتنفه الغموض من بعض نواحيه ، ولابد للباحث من التحري في الكثير من المراجع لكي يعثر علىٰ حادثة لها دلالتها الاجتماعية أو الفكرية .

وهناك صعوبة أُخرىٰ تواجهنا في هذا الشأن هو أن تأريخ العراق متشابك مع تواريخ البلاد المجاورة وهذا يقتضي البحث في تلك التواريخ علاوة علىٰ بحث التاريخ الخاص بالعراق . سيجد القاريء أني أطنبت أحياناً في سرد الأحداث التي

---

(١) وهو الكتاب الذي عنوانه «دراسة في طبيعة المجتمع العراقي» بغداد ١٩٦٥ .

www.ketab.ir

وقعت في ايران وتركيا ، ثم في نجد ومصر وبلاد الشام ، وهذا أمر أحسبه ضرورياً لفهم أحداث العراق ، وقد يصح القول إن كثيراً من أحداث العراق لم يكن سوىٰ صدىٰ لما حدث في الاقطار المجاورة .

مشكلة الموضوعية :

إنّ هذا الكتاب قد يجوز أن أعدّه «كتاب العمر» بالنسبة لي ، فقد بذلت فيه من الجهد والوقت أكثر مما بذلت في أي كتاب آخر سابق له ، وقد جعلته عدة أجزاء أكملت منها حتىٰ الآن أربعة ، والمأمول أن أتابع البحث في تاريخ العراق الحديث حتىٰ أصل به الىٰ الوقت الحاضر الذي نعيش فيه ، وهذا ما استمد العون عليه منه تعالىٰ !

ولابد لي في هذه المقدمة العامة أن أُشير الىٰ مشكلة طالما عانيت منها في كتبي السابقة وهي مشكلة الموضوعية والحياد في الدراسة . فسوف نأتي في بعض فصول هذا الكتاب علىٰ أُمور تعتبر حساسة جداً في نظر الكثير من العراقيين ، وقد اعتاد هؤلاء أن ينظروا في أحداث التاريخ كمثل ما ينظرون نحو هرم (له عدة أوجه) فكل فريق منهم يركز نظره علىٰ وجه واحد منه بينما هو يهمل الأوجه الأُخرىٰ .

حين نشهد معركة من معارك النساء في أحد ازقة بغداد القديمة نستطيع أن نفهم طبيعة تلك النظرة «الجزئية» التي اعتاد عليها الكثيرون منّا ، فان المعركة تبدأ عادة بحدوث شجار بين طفلين فيؤذي كل منهما الآخر ، وعند هذا تخرج أم كل واحد منهما صائحة نادبة حيث نراها تبالغ في تقدير الاذىٰ الذي وقع علىٰ طفلها بينما هي تتناسىٰ ما أوقع طفلها علىٰ خصمه من الأذىٰ ، والأم الأُخرىٰ تفعل مثلها طبعاً ، وبذا قد تتضخم المعركة تدريجاً وتمتد الىٰ الرجال وسائر الأرقاب . وبمرور الأيام

www.ketab.ir

قد تتطور المعركة فتصبح تراثاً عائلياً مليئاً بالأحقاد والثارات . ومن يستمع الىٰ احدىٰ العائلتين وهي تقص قصتها يجد بوناً شاسعاً بينها وبين قصة العائلة الأُخرىٰ ، فكل عائلة تصوّر الأحداث من الوجهة التي تلائمها وتنسىٰ الوجهات الأُخرىٰ .

لعلني لا أُغالي إذا قلت إن أكثر المنازعات الطائفية والسياسية والقبلية التي يزخر بها تاريخنا هي في أساسها الاجتماعي لا تختلف عن معركة النساء الآنفة الذكر . وهذا هو الذي جعل مهمة الباحث المحايد ـ أو الذي يحاول أن يكون محايداً ـ عسيرة جداً ، إذ هو يمسي مكروهاً من الجميع . فهو يريد أن يتحرىٰ الحقيقة الموضوعية لدىٰ كل فريق منهم ، بينما يريد كل فريق منهم أن يلتزم الباحث جانبه وحده .

التنويم الاجتماعي :

لا يذهب ظن القارىء الىٰ أن العراقيين يختلفون في هذا عن غيرهم من البشر ، فالواقع أن النظرة «الجزئية» طبيعة بشرية عامة وهي إنما تختلف شدة وضعفاً ـ في الأفراد أو في الجماعات ـ حسب اختلاف الظروف .

إنّ الانسان يخضع في حياته الاجتماعية لتنويم يشبه من بعض الوجوه التنويم المغناطيسي وهو ما يمكن أن نسميه بـ «التنويم الاجتماعي» .

فالمجتمع يسلّط علىٰ الإنسان منذ طفولته الباكرة ايحاءاً مكرراً في مختلف شؤون العقائد والقيم والاعتبارات الاجتماعية وهو بذلك يضع تفكير الانسان في قوالب معيّنة يصعب الخروج منها . وهذا هو الذي جعل الانسان الذي نشأ في بيئة معيّنة ينطبع تفكيره غالباً بما في تلك البيئة من عقائد دينية وميول سياسية واتجاهات عاطفية وما أشبه ، فهو يظن أنه اتخذ تلك العقائد والميول بارادته واختياره ولا يدري أنه في الحقيقة صنيعة بيئته الاجتماعية ، ولو أنه نشأ في بيئة أُخرىٰ لكان تفكيره علىٰ نمط آخر .

www.ketab.ir

دلّت الأبحاث النفسية الحديثة التي أُجريت في مجال التنويم المغناطيسي علىٰ أن الانسان قد يتأثر بالتنويم الىٰ درجة يرىٰ فيها أشياء أو يسمع أصواتاً غير موجودة ، وهو أثناء التنويم قد يتصور الأبيض أسود والأسود أبيض ، ولو قرّبت الىٰ أنفه زجاجة تنبعث منها رائحة كريهة وأوحي اليها أنها رائحة طيّبة لظهر علىٰ وجهه الارتياح كأنه يشم الطيب فعلاً[١] .

إنّ التنويم المغناطيسي في حقيقته ليس سوىٰ إيحاء مكرر يسلّط علىٰ الإنسان حيث يقال له مرة بعد مرة إنّه يرىٰ شيئاً معيناً فتنطبع الصورة الموحىٰ بها في ذهنه تدريجاً حتىٰ تبدو كأنه يراها رأي العين أو يلمسها لمس اليد . وقد يصح أن أقول أن التنويم الاجتماعي يفعل مثل ذلك في الكثير من الناس بحيث يجعلهم يرون الأبيض أسود والأسود أبيض وهم يعتقدون اعتقاداً جازماً أنهم يرون الحق الذي لا شك فيه .

القوقعة الجديدة :

إنّ الفرد الذي يعيش طيلة حياته في بيئة مغلقة ـ كما هو الحال في القبائل والقرىٰ المنعزلة ـ يظل خاضعاً للتنويم الاجتماعي في كبره فيرىٰ الأُمور من خلال ما أوحى به اليه في مجتمعه الضيق ، وهو يبقىٰ كذلك حتىٰ ساعة موته . أما الذي يعيش في بيئة مفتوحة فانه عندما يكبر يقع تحت تأثير ايحاءات اجتماعية من أنماط شتىٰ ، وبهذا يخرج من قوقعته الفكرية التي نشأ عليها في بيئته الأُولىٰ ويدخل في عالم جديد يحتوي علىٰ الكثير من وجهات النظر وصراع الأفكار والجماعات .

إنّ أكثر الأفراد في مثل هذه الحالة ، إذ يخرجون من قوقعتهم الفكرية القديمة ،

---

(١) انظر في موضوع التنويم المغناطيسي والتنويم الاجتماعي كتاب « الاحلام بين العلم والعقيدة » للمؤلف ـ بغداد ١٩٥٩ .

www.ketab.ir

قد يدخلون في قوقعة جديدة لها بريق يجذبهم اليها . ومن طبيعة الإنسان بوجه عام أنه يميل الىٰ الطمأنينة في داخل قوقعة تحمية كما يفعل الحلزون ، ولهذا فهو حين يخرج من قوقعته القديمة يحب الدخول في قوقعة جديدة . وهذا هو ما حدث فعلاً في مجتمعنا في مرحلته الراهنة التي بدأت منذ الحرب العالمية الأُولىٰ كما سنأتي اليه في جزء قادم من هذا الكتاب .

تتميز المرحلة الراهنة بما نسميه بـ « الحماس الجمعي » وهذا الحماس كأي شيء آخر في الوجود له محاسنه ومساوئه ، فهو من جهة يثير الجماهير ويبث فيهم نزعة الفداء والتضحية ولكنه من الجهة الأُخرىٰ يحجب عنهم النظرة الموضوعية ويجعل مهمة الباحث المحايد بينهم عسيرة .

صدق من قال : « إن حماس الجماهير هو وقود التاريخ » ، فالحماس هو الذي يحرك الشعوب ، ومن الممكن القول إن الشعب البادر الذي لا يتحسس لقضاياه العامة قد يكون طعمة لكل فاتح طامع أو مستغل ظالم . ولكن الذي أُريد أن ألفت النظر اليه في هذا الصدد هو أن الحماس لا يكفي وحده لنجاح الشعوب في مضمار الحياة الحديثة ، بل لابد أن تتواسق معه من الجانب الآخر دقة النظر وموضوعيته .

يمكن تشبيه المجتمع الناجح في العصر الحديث بالجيش الذي يدخل معركة حاسمة إذ هو يجب أن تتوازن فيه حكمة القيادة مع حماس الجنود ، فالجيش لا يستطيع أن ينتصر في المعركة اذا كان جنوده لا يتحمسون عند القتال ، وكذلك لا يستطيع أن ينتصر اذا كانت القيادة فيه يسيطر علىٰ أحكامها الحماس . ان القائد المتحمس قد يدفع جنوده نحو الهزيمة المحتومة وهو يحسب أنه سائر بهم نحو النصر الأكيد .

إننا ـ في هذه المرحلة المتأزمة من تأريخنا ـ في أشد الحاجة الىٰ التوازن بين دافع الحماس ودافع الموضوعية في أنفسنا ، فليس من الخير أن يسيطر الحماس علىٰ تفكيرنا دوماً ، كما أنه ليس من الخير أن تخلو قلوبنا من الحماس !

www.ketab.ir

مقدمة الجزء الأول

إنّ هذا الجزء من الكتاب يستوعب فترة طويلة نسبياً تمتد من بداية العهد العثماني حتىٰ منتصف القرن التاسع عشر تقريباً ، أي أنها تشمل الجزء الأكبر من الزمن الذي حكم العثمانيون فيه العراق ، والملاحظ أن أهم ما تميز به المجتمع العراقي في تلك الفترة أمران : أولهما الصراع التركي الايراني علىٰ العراق وما جرّ وراءه من نزاع طائفي شديد بين الشيعة وأهل السنة ، والثاني سيطرة المد البدوي علىٰ العراق حتىٰ صار الناس فيه كأنهم قد انتكصوا الىٰ عادات الجاهلية الأولىٰ . وفي رأيي أن هذين الأمرين يمثلان المحور الذي كانت الحياة الاجتماعية في العراق تدور حوله ولا يزال بعض أثره باقياً حتىٰ الآن . وسأحاول في هذه المقدمة تحليل هذا الموضوع واستقصاء بعض الجوانب النفسية والاجتماعية منه بقدر الامكان لكي يكون القاريء علىٰ بصيرة من أمره عند قراءة الفصول التالية .

الايرانيون والتشيع :

أرىٰ من المناسب قبل أن أبدأ بالموضوع أن أشير الىٰ خطأ شائع لا يزال الكثيرون منا يعتقدون بصحته وهو أن ايران كانت الموطن الأصلي الذي انبثق منه مذهب التشيع منذ بداية أمره وان هذا المذهب إنما جاء الىٰ العراق من ايران .

إنّ الأبحاث التاريخية الحديثة تشير الىٰ العكس من هذا الرأي تماماً ، حيث ثبت أن العراق هو منبع التشيع وقد انتقل التشيع منه الىٰ ايران والىٰ غيرها من البلاد الاسلامية ، وهنا حقيقة تاريخيه يكاد يجمع عليها الباحثون الآن وهي أن الايرانيين

www.ketab.ir

كانوا في الغالب من أهل السنة والجماعة وقد ظلوا كذلك حتىٰ بداية القرن العاشر الهجري ـ أي القرن السادس عشر الميلادي ـ وهم لم يدخلوا مذهب التشيع إلّا منذ ذلك القرن علىٰ إثر ظهور الدولة الصفوية هناك .

لا ينُكر أن ايران كانت قبل ظهور الدولة الصفوية تحتوي علىٰ عدد غير قليل من الشيعة ، ولكن هؤلاء كانوا محصورين في مدن معينة كقم ونيسابور ، أما بقية المدن الايرانية ولا سيما الكبيرة منها كاصفهان وشيراز وخراسان وتبريز فكان سكانها ـ كلهم أو معظمهم ـ سنيين .

وممّا يجدر ذكره في هذا الصدد أن الايرانيين عندما كانوا سنيين اشتهروا بأن أكثر علماء السنة منهم ، وقد استفاضت هذه الشهرة عنهم حتىٰ نسب الرواة الىٰ النبي حديثاً في تأييدها هو : « لو تعلّق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس » . وعقد ابن خلدون فصلاً في مقدمته حاول فيه تعليل ذلك في ضوء نظريته العامة حول خصائص البداوة والحضارة[١] .

سواء أصحت نظرية ابن خلدون في هذا الشأن أم لم تصح فالظاهر أن المجتمع الايراني كان ذا ميل قوي نحو طلب العلم والانهماك فيه علىٰ وجه من الوجوه ، وقد شهدنا أثر ذلك عندما تحول الايرانيون الىٰ التشيع حيث أصبح أكثر علماء الشيعة منهم . والمعروف عن الدولة الصفوية أنها عندما كانت تعمل علىٰ « تشييع » الايرانيين في البداية استعانت بعلماء من العرب ، فاستقدمت منهم عدداً من جبل عامل ومن البحرين[٢] ، ولم يمض علىٰ ذلك سوىٰ فترة قصيرة من الزمن حتىٰ أخذ العلماء يظهرون من بين الايرانيين أنفسهم ، ونبغ اذ ذاك أفذاذ مشهورون لا

---

(١) ابن خلدون (مقدمة ابن خلدون) ـ تحقيق علي عبدالواحد وافي ـ القاهرة ١٩٦٢ ـ ج ٤ ص ١٢٤٧ ـ ١٢٥٠ .

(2) Edward Browne (A . Literary Histary of Persia) - Cambridge 1953 - vol IV p . 360

www.ketab.ir

يقلون في انتاجهم الفكري عن أسلافهم الأولين ، ولكن الفرق بينهم وبين أسلافهم هو أنهم شيعة بينما كان أسلافهم من أهل السنة .

صارت اصفهان في العهد الصفوي عاصمة الدولة ومركز العلم الشيعي . وعلىٰ إثر انهيار الدولة الصفوية وشيوع الفوضىٰ في ايران انتقل مركز العلم الىٰ كربلاء وظل فيها حتىٰ أواخر القرن الثامن عشر ، ومنذ ذلك الحين أخذ المركز يتحول الىٰ بلدة النجف واستقر فيها حتىٰ يومنا هذا ويبدو أنه استقر فيها نهائياً ولن يتحول عنها .

إن الذي نريد أن نستنتجه من هذا هو أن ايران بعد أن تحولت الىٰ التشيع أخذت تؤثر في المجتمع العراقي تأثيراً غير قليل ، فقد بدأ التقارب بين الايرانيين وشيعة العراق ينمو بمرور الأيام ، وصارت قوافل الايرانيين تتوارد تباعاً الىٰ العراق من أجل زيارة العتبات المقدسة أو طلب العلم أو دفن الموتىٰ أو غير ذلك .

وقد نشأ في العراق من جراء ذلك وضع اجتماعي فريد في بابه هو أن الشيعة الذين يؤلفون أكثرية السكان في العراق هم من العرب بينما أكثرية علمائهم من الايرانيين .

يأتي الطلاب الايرانيون الىٰ العراق لتلقي الدروس الدينية في مدارس النجف أو كربلا ، فمنهم من يعود الىٰ وطنه بعد الانتهاء من دراسته ، ومنهم من يبقىٰ . ومن الطبيعي أن الذين يبقون منهم يظلون علىٰ صلة مستمرة بوطنهم الأول ، فاذا حدث في ايران أي صراع ديني أو سياسي فسرعان ما ينتقل اثره الىٰ العراق عن طريقهم إذ أن الجدال الذي ينشب بين رجال الدين في ايران لابد أن يصل اليهم علىٰ وجه من الوجوه ، فيتجادلون هم بدورهم ، وكثيراً ما ينتشر عدوىٰ الجدال الىٰ العامة وربما أدىٰ الىٰ استفحال الخصومة وتبادل الشتائم بينهم . وهذا هو ما وقع فعلاً في قضية « التنباك » التي حدثت في عام ١٨٩٠ ، وقضية المشروطة التي حدثت في عام ١٩٠٦ ، وغيرها من القضايا التي سنأتي الىٰ بعضها في هذا الجزء أو الأجزاء التالية له .

www.ketab.ir

إنّ هذا الوضع ليس من شأنه أن تكون له تلك الأهمية لو قدر للعراق أن يكون جزءاً من الدولة الايرانية ، ولكن القدر شاء للعراق أن يكون جزءاً من الدولة العثمانية ، وبهذا صار المجتمع العراقي منشقاً على نفسه لا يدري أين يتجه ، فحكومته كانت مرتبطة بتركيا تأخذ أوامرها منها بينما كانت أكثرية شعبه مرتبطة بايران .

استفحال الصراع الطائفي :

كانت الدولة العثمانية قد ظهرت في تركيا منذ القرن السابع الهجري ، غير أنها اتجهت في توسعها أولاً نحو الغرب باتجاه أُوربا ، وهي لم تتجه نحو الشرق أي باتجاه العراق وغيره من البلاد العربية إلّا بعد ظهور الدولة الصفوية في ايران . ومنذ ذلك الحين صار العراق موضع نزاع عنيف بين الدولتين الايرانية والعثمانية واستمر كذلك ما يزيد على الثلاثة قرون ، ومن هنا نشأ المثل المشهور في العراق : « بين العجم والروم بلوىٰ ابتلينا »[١] . إن هذه « البلوىٰ » التي ابتلي بها العراق اذ ذاك نشأت من كون الدولة الايرانية اتخذت التشيع شعاراً لها بينما اتخذت الدولة العثمانية شعار التسنّن ، فأدىٰ ذلك الىٰ استفحال الصراع الطائفي في العراق الىٰ درجة لا تطاق .

يجب أن لا ننسىٰ أن الصراع الطائفي كان موجوداً في العراق منذ صدر الإسلام ، وطالما شهدت بغداد في العهد العباسي معارك بين المحلات السنية والشيعية يسقط فيها الكثير من القتلىٰ ، وتحرق البيوت والاسواق ، وتنتهك حرمة المراقد المقدسة . ولكن هذا الصراع بلغ أوجه عندما حدث التنازع علىٰ العراق بين الدولتين الايرانية

---

(١) ممّا يلفت النظر أن العراقيين ـ والعرب عموماً ـ كانوا يطلقون علىٰ الأتراك اسم « الروم » والظاهر أن ذلك نشأ من كون الأتراك جاءوا الىٰ البلاد العربية من جهة الروم .

www.ketab.ir

والعثمانية حيث صار أهل العراق لا يفهمون من شؤون حياتهم العامة سوىٰ أخبار هذه الدولة أو تلك ، وكل فريق منهم يدعو اللّه أن ينصر احداهما ويخذل الأُخرىٰ .

لم يكن أهل العراق في ذلك الحين يعرفون شيئاً من المفاهيم السياسية الحديثة كالوطنية أو القومية أو الاستقلال ، بل كان جلّ ما يشغل بالهم هو الاحساس الديني المتمثل بالتعصب المذهبي . ومعنىٰ هذا أنهم لم يكونوا يعتبرون الايرانيين أو الأتراك أجانب هدفهم احتلال البلاد والانتفاع بخيراتها ، إنما كان كل فريق منهم ينظر الىٰ الدولة التي تنتمي الىٰ مذهبه كأنها حامية الدين ومنقذة الرعية .

وقد ظلت هذه النظرة سائدة بين العوام حتىٰ عهد قريب ، وكان من مظاهرها تقديسهم للمدفع المعروف باسم « طوب أبو خزامة » ، هذا المدفع جاء به السلطان مراد الرابع لفتح بغداد ثم تركه فيها ، وقد انثال العوام يتبركون به بعدئذٍ مع العلم أنه لم يكن سوىٰ اداة من أدوات « احتلال » العراق و « استعماره » حسب مفاهيم العصر الحديث .

إنّ الصراع الطائفي يقوم في ظاهره علىٰ أساس الخصومة بين من يدعي التمسك بأصحاب النبي ومن يدعي التمسك بأهل بيته . والواقع أن الدولتين العثمانية والايرانية كانتا متماثلتين من حيث بعدهما عمّا كان يدعو اليه أصحاب النبي وأهل بيته معاً ، إذ كانت كلتاهما من الدول الاستبدادية القديمة التي لم يكن لها أي شبه كثير أو قليل بالدولة الاسلامية التي شهدناها في عهد النبي وخلفائه الراشدين .

لم يكن أهل العراق في العهد العثماني يدركون هذا ، أو يستطيعون أن يدركوه ، فقد كان يكفيهم أن تكون الدولة علىٰ مذهبهم فتشيّد قبور ائمتهم وتعتني باقامة الطقوس والمظاهر الدينية الخاصة بهم ، ولا بأس بعدئذٍ أن تفعل الدولة ما تشتهي فذلك أمر لا يهمهم ولا يعتقدون أن له دخلاً بالدين .

www.ketab.ir

مبدأ الشفاعة

يمكن القول إنّ العقيدة الدينية كانت آنذاك ترتكز في بعض أسسها على مبدأ الشفاعة ، فالناس حين يدّعون التمسك بالصحابة أو بأهل البيت لم يكن قصدهم من ذلك اتباع طريقتهم في الحياة ، بل كان قصدهم الحصول على شفاعتهم يوم القيامة .

كان الناس يعتقدون أن الدنيا فانية وهي لاتستحق أن يهتم بها الإنسان إنّما يجب عليه أن يهتم بأمور الآخرة بدلاً عنها ، وأهم وسيلة للفوز الأُخروي في نظرهم هو القيام بالطقوس الدينية من جهة والحصول على شفاعة المقرّبين عند اللّه من الجهة الأُخرىٰ ، أما الأخلاق وحسن المعاملة وما أشبه فهي ليست ذات أهمية كبيرة لأن جميع الذنوب في نظرهم قد يغفرها اللّه بوساطة الشفعاء الذين يحبهم اللّه حباً جمّاً ولا يردّ لهم أي طلب .

لا يخفىٰ أن مبدأ الشفاعة هذا منبثق من طبيعة الحكم الذي اعتاد الناس عليه في العصور القديمة ، فهم قد اعتادوا أن يروا الشخص المقرّب من السلطان قادراً أن ينقذ أي أنسان من حبل المشنقة أو يجعله يحظىٰ بالجوائز والمال الوفير ، وقد انعكست هذه النظرة علىٰ عقيدتهم الدينية فصاروا يعتقدون أن الشفاعة لها أهمية عند اللّه في الآخرة مثل أهميتها عند السلاطين في الدنيا .

إنّ هذا قد يساعدنا علىٰ تفسير الكثير من الظواهر الاجتماعية المتناقضة التي كان العهد العثماني يزخر بها من حيث اهتمام الناس ـ حكومة وشعباً ـ بتعمير المساجد والمراقد المقدسة ، وشدة العناية بالطقوس والمظاهر الدينية ، في الوقت الذي كان فيه الظلم والنهب والاعتداء شائعاً بين الناس ـ فالحكومة تظلم الناس ، والناس يظلمون بعضهم بعضاً ، ولكن الجميع واثقون بأنهم سيدخلون الجنة غداً بوساطة الشفعاء الكرام .

www.ketab.ir

إنّ أهم قضية يثور الجدل حولها بين الشيعة وأهل السنة هي قضية الخلافة أي من يجب أن يكون الخليفة بعد وفاة النبي ـ علي أم أبو بكر . ومن ينظر الآن في هذه القضية نظرة عصرية محايدة يشعر أنها من قضايا الماضي البعيد وليست لها أية أهمية أو علاقة بواقعنا الراهن . ولكن العراقيين كانوا ينظرون فيها من وجهة نظر أُخرىٰ ، فهم حين يعتقدون بأن فلاناً أجدر من فلان بالخلافة يحسبون أن ذلك سينفعهم يوم القيامة لأن فلاناً سيشفع لهم بين يدي اللّه ولا بد أن ينقذهم بشفاعته من عذاب الحجيم !

تدور عقيدة الشيعة حول أهل البيت ، فهؤلاء في نظر الشيعة هم وحدهم المقربون الىٰ اللّه والقادرون علىٰ الشفاعة المنجية ، ومن يريد أن يحظىٰ بشفاعتهم يجب عليه أن يتولاهم ويتبرأ من أعدائهم ولا يجوز له أن يحبهم ويحب أعداءهم في آن واحد . أما أهل السنة فاتخذوا عقيدة أُخرىٰ تتلخص بالعبارة المعروفة : « نحب الكل ونحظىٰ بالكل » ـ أي أنهم يحبون أبا بكر وعلياً معاً كما يحبون الصحابة وأهل البيت جميعاً ـ ولذلك فهم سينالون حسب عقيدتهم شفاعة الكل [١] .

ممّا يجدر ذكره في هذا الصدد أن مبدأ الشفاعة موجود في كل الطوائف والأديان علىٰ وجه من الوجوه ، ولكننا نستطيع أن نقول إن هذا المبدأ يضعف تأثيره في المرحلة الأُولىٰ من نشأة الدعوة الدينية ، فالناس اذ ذاك يهتمون بالعمل الصالح أكثر من اهتمامهم بمبدأ الشفاعة ، إنما هم بعد مرور الزمن عليهم وانتكاصهم تدريجاً الىٰ قيمهم الاجتماعية القديمة ـ حيث يعودون الىٰ التكالب علىٰ الدنيا

---

(١) يروي طالب مشتاق قصة طريفة في هذا الشأن وهي أنه بحكم ولادته في الكاظمية وهي بلدة شيعية نشأ شيعياً فأخذت جدته تنصحه بأن يترك التشيع ويعتنق مذهب السنة ، وكانت تكرر عليه دائماً قولها : «إننا يابني نحب الكل ونحظىٰ بشفاعة الكل» ، غير أنه كان يهزأ بها ولا يعير قولها أي اهتمام . . .
انظر : طالب مشتاق (أوراق أيامي) ـ بيروت ١٩٦٨ ـ ج ١ ص ١٠ .

وينسون تعاليم الدين ـ يجدون أنفسهم أنهم قد انغمسوا في الذنوب وأن ليس لهم من أمل في النجاة إلّا اذا كان لديهم رجل وجيه عند اللّه يتشفع لهم . إنهم في هذا كالمجرم الذي هو علىٰ وشك أن يحال الىٰ المحكمة إذ هو لا يجد أملاً في النجاة إلّا عن طريق الوساطة ، ولذا نراه يلتجيء الىٰ الوسيط طالباً «دخالته» متضرراً بين يديه وهو يظن أن الوسيط لابد أن يرق قلبه أو تدفعه المروءة والشهامة فيقوم بالوساطة له علىٰ أي حال .

يمكن القول إن مبدأ الشفاعة يشبع حاجة نفسية عند الناس ، وهم لا يكتفون باللجوء اليه من أجل غفران ذنوبهم فقط ، بل يلجأون اليه أيضاً عندما يحتاجون الىٰ وسيط في أُمورهم الدنيوية ، فاذا تمرض شخص عزيز عليهم ، أو حلّ بهم الفقر وتراكمت عليهم الديون ، أو انتشر بينهم وباء أو داهمتهم كارثة ، اسرعوا الىٰ قبر أحد الائمة أو الأولياء يبكون عنده ويستغيثون . فهم قلما يدعون اللّه في حاجة لهم لأنهم يتصورون اللّه كالسلطان لا يمكن الوصول اليه إلّا عن طريق المقربين منه من ذوي الجاه الكبير والمقامات الرفيعة .

خلاصة القول أننا لا نستطيع أن نفهم سر الكثير من مظاهر التدين ـ في المجتمع العراقي وغيره من المجتمعات المشابهة له ـ ما لم نفهم مبدأ الشفاعة ومبلغ تغلغله في أعماق القلوب ، إن الناس قد ينكرون أثر هذا المبدأ فيهم أحياناً لكنهم خاضعون لتأثيره من حيث لا يشعرون ولولاه لأحسّوا بالضياع .

أخلاق أهل العراق :

كان العراقيون في العهد العثماني أقرب الىٰ أخلاق البداوة منهم الىٰ أخلاق الاسلام ، وسبب ذلك يعود الىٰ سيطرة « المد البدوي » عليهم . وليس هنا مجال التبسط في هذا الموضوع ، ويكفي أن أقول إن هناك تبايناً كبيراً بين أخلاق البداوة

وأخلاق الاسلام إذ أن البداوة تمجد قيم العصبية والثأر والغزو والنهب والدخالة وقتل المرأة لغسل العار وما أشبه، بينما يشجب الاسلام تلك القيم ويعدها من عادات الجاهلية المنهي عنها. والواقع أنها علىٰ الرغم من شجب الاسلام لها كانت شائعة في العهد العثماني وكان الكثير من الناس يمجدونها، ولم يكن من النادر أن نراهم يفخرون بالرجل الذي يهزّ الأرض بأقدامه اذا مشىٰ، ويكسر عيون الناس دون أن يتمكن أحد من كسر عينه، ويسطو علىٰ البيوت ليلاً بدافع الرجولة، وهم عندئذٍ يصفون بأنه « سبع » أو « رجل ليل » أو « فخر العشيرة » أو غير ذلك من صفات المديح.

الواقع أن « المد البدوي » طالما راود المجتمع العراقي ـ مرّة بعد مرة ـ خلال عصور التاريخ، فهو يأتيه تارة وينزاح عنه تارة أُخرىٰ ويرجع السبب في ذلك علىٰ الأكثر الىٰ كون الصحراء التي تتاخم العراق هي من أعظم منابع البداوة في العالم ـ إن لم تكن أعظمها علىٰ الأطلاق ـ وليس هناك حاجز طبيعي يحجز بينها وبينه، ولذا كانت القبائل البدوية علىٰ استعداد دائماً لدخول العراق والسكنىٰ فيه، وهي تفعل ذلك حالما تجد الفرصة مؤاتية لها كما في فترات الفوضىٰ والحروب، أو علىٰ إثر انتشار الأوبئة الكاسحة، أو في الأوقات التي تكون فيها الحكومة ضعيفة مهملة والحضارة مضمحلة ـ وعندئذ تتغلغل القبال البدوية في أنحاء العراق فتسيطر علىٰ الطرق وتهدّد المدن والقرىٰ ممّا يؤدي بسكانها الىٰ حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم وبهذا تنتشر قيم العصبية والثأر والغزو بينهم.

وهناك سبب آخر يمكن أن يؤتىٰ به في هذا الصدد وهو أن مياه العراق تحمل من الغرين نسبة عالية جداً[١]، وهذا يؤدي في فترات الفوضىٰ والاهمال الىٰ ترسب الطين في مجاري الأنهار، واندثار ترع الري، وتتابع الفيضانات. ولابد أن

---

(١) أحمد سوسة (فيضانات بغداد في التاريخ) ـ بغداد ١٩٦٣ ـ ج ١ ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

يؤدي هذا بدوره الىٰ ترك الكثير من العشائر حرفة الزراعة واتجاهها نحو حرفة الرعي وما يصاحبها من عادات البداوة .

أضف الىٰ ذلك أن الأراضي الزراعية في العراق كثيراً ما تتضاءل في قدرتها الانتاجية من جراء تراكم الأملاح فيها أو تغير مجاري الأنهار ، وهذا يدفع العشائر الريفية ـ في العهود التي تضعف سيطرة الحكومة فيها ـ الىٰ التنازع فيما بينها من اجل الاستحواذ علىٰ الأراضي الصالحة أو من أجل الاحتفاظ بها علىٰ الأقل ، ومعنىٰ هذا انتكاص تلك العشائر الىٰ عادات البداوة إذ هي تجد أنها غير قادرة علىٰ البقاء في معركة الحياة إلّا بحد سيفها وقوة عصبيتها .

المد البدوي الأخير :

يبدو لي أن المد البدوي الأخير الذي شمل العراق في العهد العثماني كان أشد وطأة من جميع عهوده السابقة إذ لم يشهد المجتمع العراقي عبر تاريخه الطويل حقبة سيطرت فيها القيم البدوية كتلك الحقبة . ولعلني استطيع أن أعلّل ذلك بالأسباب التالية :

أولاً ـ إن الفتح العثماني جاء عقب فترة من الفتوح المغولية والتترية ، وهي فترة لم تتوفر فيها حكومة حضرية تعني بترويج التجارة وتشجيع الانتاج والعناية بنظام الري . ويعتبر المؤرخون تلك الفترة أشد فترات التاريخ العراقي ظلاماً وأوطأها حضارة . إن الحكومات التي تتابعت علىٰ العراق منذ سقوط الدولة العباسية ، أو ربما قبل ذلك ، كان همها الأكبر ينحصر في الفتح والجباية بدلاً من العمران أو سيادة الأمن والنظام في المجتمع ، فاضطر أهل المدن من جراء ذلك الىٰ الالتجاء الىٰ العصبية القبلية والقيم البدوية من أجل المحافظة علىٰ أرواحهم وأموالهم ، كما اضطرت العشائر الصغيرة الىٰ التكتل أو الانضمام الىٰ اتحادات قبلية كبيرة لكي

تكون أقدر على تنازع البقاء . وقد اشتد هذا الوضع ضراوة في العهد العثماني ، فكثيراً ما كان الولاة فيه يضربون العشائر بعضها ببعض لكي يشغلوها أو يضعفوها على طريقة « فرّق تسد » .

ثانيا ـ إن الدولة العثمانية حين جاءت لفتح العراق في القرن السادس عشر كانت قد اجتازت قمة قوتها وازدهارها وسرعان ما بدأت تظهر عليها امارات الضعف والانهيار ، ولم يكن من المقدّر لها آنذاك أن تبقى على قيد الحياة مدة طويلة غير أن الذي ابقاها حية على الرغم من وهنها الشديد هو ما عرف في التاريخ الحديث باسم « المسألة الشرقية » إذ كانت بعض الدول الكبرى كبريطانيا وفرنسا تتبع ازاء الدولة العثمانية سياسة من لا يريد لها الحياة أو الموت . إنّهم كانوا يخشون أن تموت قبل أن يتم الاتفاق بينهم على اقتسام تراثها ، فكانوا يدأبون على اعطائها جرعات صغيرة من العلاج كلما وجدوها مشرفة على الموت ، وهكذا بقيت الدولة العثمانية مدة طويلة تعالج سكرات الموت دون أن تموت . ومعنى هذا أن العراق وغيره من البلاد التي كانت خاضعة لها ظلت ترزح تحت نير التفسخ الحكومي والانحطاط الحضاري ، فكان ذلك فرصة ثمينة للقبائل البدوية حيث أخذت تتغلغل في العراق وتسيطر بقيمها الاجتماعية عليه .

ثالثا ـ ان الدولة العثمانية علاوة على ضعفها العام كانت مشغولة بنزاعها المتصل مع ايران ـ ذلك النزاع الذي استمر ثلاثة قرون تقريباً ولم يهدأ نسبياً إلّا منذ منتصف القرن التاسع عشر ، ولابد أن يكون هذا الانشغال فرصة للقبائل لكي تسرح وتمرح في العراق كما تشاء . ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن الحكومة العثمانية كثيراً ما كانت تستعين بالقبائل العراقية في حروبها مع ايران ، والمعروف عن تلك القبائل أنها لا تشترك في الحرب بدافع وطني أو ديني أو ما أشبه ، بل هي تشترك فيها ابتغاء الغنيمة من جهة وابتغاء الحصول على امتيازات تخول لها السيطرة على

www.ketab.ir

مناطق خاصة بها من الجهة الأخرىٰ ، وهي بعد انتهاء الحرب قد تصبح مستقلة تحكم نفسها بنفسها وتحاول أن توسع نفوذها علىٰ العشائر المجاورة لها . وبهذا قد تقع مناطق واسعة من العراق تحت سطرة شيوخ عشائريين يحكمونها حسب قيمهم البدوية .

رابعاً ـ كانت الأوبئة تجتاح العراق في العهد العثماني مرة كل عشر سنوات تقريباً . والواقع أن الأوبئة كانت تجتاح العالم كله حيناً بعد حين ولكني أميل الىٰ الظن أن العراق كانت حصته منها أكثر من حصة غيره ، وربما كان من أسباب ذلك هو أن العراق يقع في طريق الحج بالنسبة لبعض الأقطار الاسلامية ، وهو بالاضافة الىٰ ذلك يحتوي علىٰ مراقد مقدسة يقصدها الزوار كثيراً وفيه مقبرة تعد أعظم مقابر العالم هي مقبرة « وادي السلام » في النجف . ومعنىٰ هذا أن أي وباء يحدث في بلد مجاور لابد أن ينتقل الىٰ العراق عاجلاً أو آجلاً[١] .

ولا حاجة بنا الىٰ القول إن الأوبئة هي من أشد العوامل تأثيراً في توهين الحضارة وفي تدعيم « المد البدوي » في البلاد ، إذ هي تكون عادة أشد وطأة علىٰ سكان المدن منها علىٰ سكان البادية أو الريف ، وكلما كانت المدن أكبر وأكثر ازدحاماً بالسكان كان تأثير الوباء فيها أفظع ، وطالما قضت الأوبئة علىٰ معظم الصنّاع وأرباب الحرف في المدن فلا يبقىٰ منهم ما يكفي لاستمرار الحضارة وازدهارها .

---

(١) انظر في عوامل استفحال الأوبئة في العراق كتاب « دراسة في طبيعة المجتمع العراقي » للمؤلف ـ بغداد ١٩٦٥ ـ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٦ .

www.ketab.ir

المدن والعشائر :

هناك ظاهرتان اجتماعيتان يمكن أن نستدل بهما على مبلغ استفحال المد البدوي في العهد العثماني : أحداهما قلة السكان في العراق ، والثانية كثرة العشائر بالنسبة الى أهل المدن فيه .

كان مجموع سكان العراق في منتصف القرن التاسع عشر يناهز المليون وربع المليون ، وهذا عدد قليل جداً بالنظر الى ما كان عليه سكان العراق في العهد العباسي إذ يقال أن سكان بغداد وحدها آنذاك كان يزيد على سكان العراق كله في العهد العثماني .

كانت العشائر في العهد العثماني تنوف نسبتها على ثلاثة أرباع سكان العراق ، وكانوا فئتين بدواً وزراعاً[١] ، ولكنهم جميعاً يخضعون للعصبية القبلية ولا يعرفون غيرها . فهم كانوا ينظرون الى كل حكومة نظرة عداء لا فرق عندهم بين ان تكون الحكومة تركية أو ايرانية ، وربما عمد بعض العشائر الى معاونة الجيوش المنتصرة ، والى نهب فلول الجيوش المنكسرة بغض النظر عن عقيدة هذه الجيوش أو تلك .

أما أهل المدن فكانوا يختلفون بعض الاختلاف عن العشائر في هذا الشأن ، فلقد كانت لديهم ثلاثة مستويات من العصبية أو الانتماء الجماعي ، بينما كان للعشائر مستوى واحد من العصبية هي العصبية القبلية . فالفرد الحضري يتعصب قبل كل شيء لمحلته ازاء المحلات الأخرى من بلدته ، حيث تكون المحلة بالنسبة له كالعشيرة بالنسبة للبدو والريفيين ، بيد أن عصبيته المحلية هذه قد تتحول الى عصبية أوسع نطاقاً وهي التي نسميها بالعصبية البلدية ، ويحدث ذلك حين يهدد

---

(١) محمد سلمان حسن (التطور الاقتصادي في العراق) ـ بيروت بدون تاريخ ـ ص ٥١ ـ ٥٨ .

البلدة خطر عام ، وبذا تتّحد جميع المحلات في سبيل الدفاع عن البلدة وتقف صفاً واحداً تجاه العدو المشترك .

أما المستوىٰ الثالث من العصبية عند أهل المدن فهو المستوىٰ الطائفي ، وهو يظهر عندما تثار قضية طائفية أو تأتي لغزو البلاد دولة تنتمي الىٰ إحدىٰ الطائفتين . وحينئذٍ ينسىٰ أهل المدن عداواتهم المحلية والبلدية ويركزون اهتمامهم نحو القضية الجديدة ، وهنا يظهر مصداق المثل البدوي المشهور : « أنا وأخي علىٰ ابن عمي ، وأنا وابن عمي علىٰ الغريب »

يتضح من هذا أن الطائفية ليست سوىٰ نمط معين من العصبية ، أي أنها تقوم علىٰ أساس من الانتماء الاجتماعي أكثر مما تقوم علىٰ أساس من الدين والحرص علىٰ سلامة تعاليمه .

فالملاحظ أن العراقيين في نزاعهم الطائفي كانوا ينسبون كل فريق منهم الىٰ الرجل الذي يعتبرونه رمز عصبيتهم الطائفية فيقال إنّ هؤلاء «ربع علي» وأولئك « ربع عمر »[١] ، وكل فريق منهم يتصور نفسه كأنه عشيرة الرجل ، وهم يتحمسون له كما تتحمس القبائل عند القتال تحت راية شيخها الكبير .

إن هذا يشبه من بعض الوجوه ما يحدث أثناء النزاع بين بلدتين من طائفة واحدة ، كمثل ما يقع أحياناً بين النجف والكاظمية فأهل الكاظمية يطلقون علىٰ أنفسهم لقب « أولاد موسىٰ » نسبة الىٰ الإمام موسىٰ الكاظم المدفون في بلدتهم ، وكذلك يطلق أهل النجف علىٰ أنفسهم لقب « أولاد علي » . فالقضية هنا خرجت من إطارها الديني وأصبحت كأنها نخوة قبلية ، وحين يتقاتل « أولاد علي » و « أولاد موسىٰ » ينسون أن علياً وموسىٰ من شرعة واحدة ومبدأ واحد .

---

(١) ان لفظة « ربع » في اللهجة العراقية تعني الجماعة أو الحزب أو الكتلة ، والظاهر أن لها أصلاً في اللغة العربية الفصحىٰ فالمعروف تاريخياً أن المحاربين في صدر الاسلام كانوا يقسمون الىٰ « أرباع » أي فرق .

www.ketab.ir

ظاهرة الشقاوة :

إن من أهم الظواهر الاجتماعية التي تدل على مبلغ سيطرة المد البدوي على العراق في العهد العثماني هي ظاهرة « الشقاوة » ولابد لنا في هذه المناسبة من دراسة هذه الظاهرة على شيء من التفصيل إذ هي تعطينا صورة واضحة لما كان عليه المجتمع العراقي آنذاك من تركيب وقيم .

إن « الشقي » من الناحية القانونية يعتبر مجرماً ، غير أنه من الناحية الاجتماعية يعد من الأبطال الذين تفتخر بهم المحلة ويشار اليهم بالبنان . إنه كان في الغالب يمتهن اللصوصية والسطو على البيوت وفرض « الخاوة » ـ أي الاتاوة ـ على الأغنياء ، ولكنه في الوقت نفسه لا يخالف القيم المحلية السائدة فهو في محلته شهم مغوار يحمي جاره ويحافظ على حق « الزاد والملح » ويراعي تقاليد العصبية والدخالة والنجدة وما أشبه . أما سلوكه الاجرامي فهو موجّه ضد الحكومة من ناحية ، وضد الافراد الذين لا ينتمون الى عصبيته من الناحية الأخرى .

كثيراً ما كانت تجري المعارك الدامية بين الشقي و « الجندرمة » ليلاً ، وترتفع منزلة الشقي في نظر الناس بمقدار ما تكثر معاركه الجريئة ويزداد عدد ضحاياه . واذا ألقي القبض عليه ودخل السجن كان ذلك بمثابة وسام له استناداً على المبدأ القائل «السجن للرجال» . أما اذا قُتل خرج أهل محلته لتشييع جنازته وهم يتأسفون على موت مثل هذا الرجل « العظيم » .

في أواخر العهد العثماني قُتل أحد الأشقياء المشهورين في بغداد ـ واسمه « عباس السبع » ـ مع زميل له ، فربط « الجندرمة » جثة كل منهما بذيل حصان وسحبوهما في الطرقات . وقد ذكر شاهد عيان أنه رأى الناس يبكون لهذا الحادث ، ووجد جماعة « تهوّس » خلف الجثة الأولى قائلة « عباس السبع يا مطيّع التّجار » ،

www.ketab.ir

وكانت النساء يلطمن ويندبن حول الجثة الثانية قائلات : « ياأهل الزود اطلعوا ، ثارت الچيلات »[١] .

إن هذا يدل على مبلغ تقدير الناس للشقي ، فهم يمدحونه بأنه «مطيّع التجار» أي أنه يجبي الأتاوة من الأغنياء ويفرض عليهم الطاعة لأمره . والظاهر أن الحكومة حين سمحت بسحب الجثة وراء حصان ارادت أن تجعل من صاحبها عبرة لغيره من الأشقياء ، غير أن عملها هذا جعل الشقي شخصاً مشهوراً يندبه الناس ويتأسفون لموته .

كان عدد الأشقياء في العهد العثماني قليلاً جداً بالنسبة لمجموع السكان في المحلة أو البلدة ، انما هم كانوا على الرغم من قلة عددهم يمثلون القيم الاجتماعية السائدة أوضح تمثيل . إن السبب في قلة عددهم ناشيء من كون الشقاوة تستلزم في صاحبها صفات نادرة كالشجاعة ، والقوة البدنية ، والحذق في استعمال السلاح ، وغلاظة القلب ، والجرأة ، وهذه صفات قلما تجتمع في شخص واحد ، وان هي اجتمعت في أحد الاشخاص وجب أن تتاح له ظروف مساعدة ـ كأن يشتبك في معركة دامية مع خصوم له أو مع قوات الحكومة ويخرج منها منتصراً ـ وعند هذا تبدأ سمعته بالذيوع وترتفع مكانته بين أبناء محلته ، وكلما توالت انتصاراته بعدئذٍ ازدادت معنويته ودخل في عداد الاشقياء المرموقين .

واذا نبغ في إحدى المحلات شقي مشهور ـ على النحو الذي ذكرناه ـ اعتزت المحلة به إذ هو سيكون حاميها من اللصوص ليلاً ، وبطلها المغوار عندما تنشب معركة بينها وبين محلة أُخرى . والشقي له في زيّه علامة يتميز بها ، كالطريقة التي يلف بها الكوفية حول رأسه ، أو سرواله الطويل ، واذا مشى كانت له مشيته الخاصة

---

(١) عبدالكريم العلاف (بغداد القديمة) ـ بغداد ١٩٦٠ ـ ص ١٣٥ .

ونظرته الشزرة ، والويل لمن يقصّر في احترامه أو لا يرد له التحية بأحسن منها .

إن أكثر الصبيان في المحلة يجعلون الشقي المشهور قدوة لهم ويطمحون أن يكونوا مثله في يوم من الأيام ، فهم عندما يستمعون الىٰ آبائهم وأقاربهم يتحدثون عن مناقب الشقي ومغامراته البطوليه يحسون بالرغبة نحو الاقتداء به لكي ينالوا السمعة التي نالها . ومشكلة هؤلاء الصبيان أنهم حين يكبرون قد يشعرون بخيبة الأمل إذ أن أكثرهم لا يستطيعون أن يصلوا الىٰ الهدف الذي يطمحون اليه ، وقد يصاب بعضهم من جراء ذلك العقدة النفسية الطاحنة علىٰ منوال ما اصيب بها خلف ابن أمين .

خلف بن أمين :

الواقع أن شخصية خلف بن أمين تمثل لنا نموذجاً لعدد غير قليل من العراقيين في العهد العثماني ، ولا يزال لها نظائر في أيامنا هذه بيد أنها في تضاءل وتقلص علىٰ أي حال .

عاش خلف بن أمين في بغداد في أواخر العهد العثماني ولا يزال أهل بغداد يتناقلون نوادره ويتفكهون بها ، وخلاصة أمره أنه كان قميئاً جباناً وليس لديه من المؤهلات ما يجعل منه شقياً مشهوراً لكنه كان يطمح أن يكون شقياً يشار اليه بالبنان ، فكان يملك مسدسين كبيرين يشدّهما الىٰ جنبيه ليتباهىٰ بهما انما هو لا يستعملها إلّا حين يطمئن من زوال الخطر ، فاذا سمع في محلته أثناء الليل صراخاً يدل علىٰ وجود لص فيها ، ظل هو في بيته لا يحرك ساكناً ، حتىٰ اذا هرب اللص أو ألقي القبض عليه خرج هو من بيته وقد شهر المسدسين بكلتا يديه يطلق منهما الرصاص ويصرخ : اين هو ؟ دلّوني عليه !

وكانت أحاديثه مع الناس لا تخلو من قصص القتل والسلب والسطو علىٰ

البيوت و « البسط » ، وهو يعزو الكثير منها الىٰ نفسه طبعاً ، واذا وقعت حادثة أو سرقة كبيرة ذهب الىٰ « القلّغ » ـ أي مركز الشرطة ـ يسأل الناس هل ورد اسمه بين المتهمين ، ومن هنا جاء المثل البغدادي المعروف «ما جابوا اسم خالكم » ؟ !

وكثيراً ما يحشر نفسه بين المتهمين أو يعمد الىٰ الاعتراف أمام الحاكم بجريمة لم يقترفها بغية دخول السجن ، ولكن الحاكم كان معانداً له فكان يطلق سراحه في كل قضية ، ويخرج هو من المحكمة متألماً يذّم الحاكم ويعتبره ظالماً لأنه يطلق سراح « المجرمين » ويحكم علىٰ « الأبرياء » .

يمكن القول إن معظم الناس كانوا مثل خلف بن أمين يحبون التفاخر المصطنع بالشقاوة ، وانما اشتهر ابن أمين وحده بهذا لانه افرط في تفاخره حتىٰ صار أضحوكة الناس . إن الكثيرين في الواقع يملكون في أعماق قلوبهم مثل تلك النزعة في التفاخر المصطنع غير أنهم يتكتّمون فيها ويدارونها مخافة أن يضحك عليهم الناس ، ولو كُشف الغطاء عن أعماق قلوبهم لرأينا فيهم كثيراً من طراز خلف بن أمين .

الفرق بين العيارين والأشقياء :

يُرجع الدكتور مصطفىٰ جواد تقاليد الأشقياء الىٰ أخلاق العيارين والشطار وأهل الفتوة الذين ظهور واستفحل أمرهم في بغداد في العهد العباسي [١] . والواقع أن هناك تشابهاً غير قليل بين تقاليد هؤلاء واولئك ولكننا مع ذلك نلاحظ فرقاً بينهما هو أن الشقاوة يغلب عليها الطابع الفردي بينما كان العيارون وأضرابهم يخضعون لتنظيم جماعي يشبه تنظيم الجنود أحياناً ويشبه تنظيم « الأصناف » المهنية ـ أي

(١) ابن المعمار (كتاب الفتوة) ـ بغداد ١٩٦٠ ـ ص ٩٨ ـ ٩٩ .

النقابات ـ أحياناً أُخرىٰ .

يخيل ليأن العيارين وأضرابهم نشأوا في محيط متحضر ويمثلون ثورة الفقراء علىٰ الأغنياء ، أي أنهم ظهروا من جراء التمايز الطبقي الذي كان المجتمع البغدادي يزخر به في ذلك الحين حيث يعيش الأُمراء والأغنياء في أقصىٰ درجات الترف ويعيش الفقراء والكسبة في أقصىٰ درجات الحرمان .

لقد كانت بغداد في العصر العباسي عاصمة امبراطورية مترامية الاطراف تأتي اليها أموال الخراج والجزية والغنائم من كل مكان ، فنشأت فيها طبقة مترفة غاية الترف من جهة ، وهاجر اليها آلاف الفقراء ليعيشوا علىٰ فضلات موائد المترفين من الجهة الأُخرىٰ[١] . ولهذا ظهرت في بغداد قصور باذخة تحتوي علىٰ أعظم ما وصلت الحضارة آنذاك من وسائل اللذة والعيش الرغيد ، كما ظهرت فيها تجمعات بشرية يسودها الفقر والقذارة ، وتعشعش فيها عصابات اللصوص والعيارين والشطار ومن لفّ لفهم .

يحدثنا المؤرخون عن العيارين واللصوص أنهم كانوا حين يقطعون الطرق علىٰ القوافل وينهبونها يحتجّون بأنهم أنما يأخذون حقهم في الزكاة التي أمتنع التجار عن دفعها لهم طوعاً ، فهم يزعمون أنهم فقراء يستحقون أخذ الزكاة شاء أرباب الأموال أو كرهوا لأن الزكاة صدقة تؤخذ من أغنياء المسلمين وتفرّق في فقرائهم[٢] .

إنّ هذا الوضع الاجتماعي يختلف طبعاً عن الوضع الذي كان عليه العراق في العهد العثماني ، فقد كان همّ الوالي العثماني في الغالب أن يحصل علىٰ أقصىٰ ما

---

(١) إنّ كتاب ألف ليلة وليلة يعد من خير المراجع في تصوير تلك الحالة الاجتماعية التي كانت تعيشها بغداد ، فالقاريء يستطيع أن يستشف من وراء سطور الكتاب البون الشاسع في مستوىٰ المعيشة بين المترفين والكادحين .

(٢) جرجي زيدان (تاريخ التمدن الاسلامي) ـ القاهرة ١٩٢٧ ـ ج ٤ ص ١٨٤ .

www.ketab.ir

يستطيع الحصول عليه من أموال الجباية لكي يرسل حصة الأسد منها الىٰ اسطنبول ويستحوذ هو على الباقي منها ، أما اذا أراد الوالي العمران فأقصىٰ ما يفعله هو أن يكثر من تعمير المساجد والمعاهد الدينية إذ هو كسائر الناس يؤمن بمبدأ « الشفاعة » وكلما ازداد عدد ما يبني من المساجد في هذه الدنيا ازداد عدد القصور التي تبنىٰ له في جنة الفردوس .

يقول المستر ريج القنصل البريطاني المعروف الذي ساح في المنطقة الشمالية من العراق في عام ١٨٢٠ : إن من محاذير السفر مع جماعة كبيرة هو أن القرويين يخفون كل بضاعة جيدة لديهم مخافة أن تسلب منهم وعلىٰ الأخص اذا علموا أن بين الجماعة من هم من موظفي الحكومة [١] . إن ما لاحظه المستر ريج قد لاحظه الكثير من السياح الأجانب في العراق أيامئذٍ ، ولهذا اعتاد الناس أن يتشاءموا من أي مظهر للنعمة يظهر عليهم ويتكتموا في أمر ثرواتهم لكي لا يعلم بها أحد فتصبح عرضة للمصادرة من قبل الحكام ، أو للسرقة من قبل اللصوص ، وهذا هو الذي جعل التمايز الطبقي بين الناس غير واضح المعالم أي أنه لم يكن مثل ما كان عليه في العهد العباسي .

الوعي الجماعي :

لابد لنا في هذه المناسبة من أن نشير الىٰ أن الوعي الجماعي كان في العهد العثماني أكثر شيوعاً من الوعي الطبقي ، ونقصد بذلك أن الناس كانوا يتعصبّون لعشائرهم أو محلاتهم أكثر ممّا كانوا يتعصبون لأبناء طبقتهم ، فقد كان أبناء المحلة الواحدة في المدن يتضامنون ويتعاونون فيما بينهم بغض النظر عن اختلاف

---

(١) كلوديوس جيمس ريج (رحلة ريج في العراق عام ١٨٢٠) ـ ترجمة بهاء الدين نوري ـ بغداد ١٩٥١ ـ ص ٧ .

www.ketab.ir

مستواهم الاقتصادي ، وكان الغني منهم يحرص أن يفتح ديوانه لأبناء المحلة جميعاً من غير تفريق بينهم ، ويكثر من الولائم لهم واغداق الهدايا عليهم في المناسبات المختلفة ، وكانوا هم من جانبهم يسرعون الىٰ نجدته في الملمات ويتعصبّون له في المعارك والخصومات .

ويتضح هذا في المجتمع الريفي والبدوي أكثر مما يتضح في المدن ، حيث نجد شيخ العشيرة لا يتكبر علىٰ أبناء عشيرته ولا يتميز عنهم في لباس أو طعام أو مسكن إلّا قليلاً ، وهو يحرص أن يكون في خدمتهم دائماً ينظر في قضاياهم ويحل مشكلاتهم ويسد عوزهم ، ولذا نجدهم يفتخرون به ويتعصبون له ، وقد يغضبون اذا شتُم شيخهم أمامهم ، واذا رفع الشيخ رايته وا طلق « هوسة » القتال التفوا حوله وقاتلوا معه من غير تردد أو اعتذار .

يجب أن لا ننسىٰ في هذا الصدد أن الوعي الجماعي هو من مظاهر سيطرة المد البدوي علىٰ العراق في العهد العثماني ، فالناس عادة لايتركون الوعي الجماعي ويأخذون بالوعي الطبقي إلّا بعدما يظهر عليهم التحضّر وهم عندئذٍ يشعرون بأن المال هو عصب الحياة وأنه هو الذي يرفع مكانة الانسان أو يخفضها . أما في البداوة ـ أو في المجتمع الذي يسيطر عليه المد البدوي ـ فالناس لا يقدّرون المال إلّا بمقدار ما يدعم عصبيتهم الجماعية ويرفع من مكانتهم فيها ، وليست له فيما سوىٰ ذلك قيمة كبيرة . ومعنىٰ هذا أنهم يطلبون المال لا من أجل أن يتنعموا به بل من أجل أن يتكرّموا به .

وتظهر هذه النظرة الىٰ المال عند الاشقياء بجلاء ، فالمال لديهم وسيلة لا غاية ، وكثيراً ما كانوا يعدّون السلب والسطو علىٰ البيوت من مظاهر الشجاعة والرجولية ولهذا كان الرجل المقدام يلقب «رجل ليل» باعتبار أن الخروج للسرقة ليلاً عمل يحتاج الىٰ الكثير من الشجاعة والثقة بالنفس وعدم الخوف . ومن هنا صار بعض

www.ketab.ir

وجهاء المدن يخرجون ليلاً للسطو على البيوت لكي يدعموا بذلك وجاهتهم ويرفعوا مكانتهم الاجتماعية .

وفي العراق الآن قصص كثيرة لا يزال يتناقلها المسنون يستدلون بها على ما كان في أيامهم الماضية من أخلاق « عالية » ، وهي في مجملها تدور حول مناقب الأشقياء من حيث حرصهم على تقاليد المروءة أكثر من حرصهم على السرقة واستلاب الأموال . ومن هذه القصص واحدة طالما سمعت أبناء الجيل الماضي يلهجون بها ، وخلاصتها أن جماعة من الأشقياء سطوا ذات ليلة على بيت وأخذوا يجمعون منه الأواني وبعض الأثاث بغية جعلها في حمل واحد ليسهل نقلها ـ على طريقة اللصوص في تلك الأيام ـ فاحسّت بهم أُم البيت وهي خائفة فايقظت ولدها قائلة له : « قم ساعد أخوالك » ، والظاهر أنها قالت ذلك على سبيل التهكم ولكن اللصوص أخذوا قولها مأخذ الجد وتركوا السرقة من بيتها اذ أن المرأة صارت بمثابة «اخت» لهم وليس من الجائز في عرفهم أن ينهب الرجل اخته وأبناء أخته ، إنه يجب أن يحميهم لا أن ينهبهم !

إنّ هذه القصة قد يصح أن نتخذها معياراً لاخلاق الناس في ذلك العهد . ونحن هنا لا يهمنا أن تكون القصة قد حدثت فعلاً أو لم تحدث ، يكفي فيها أن الناس كانوا يتناقلونها كثيراً وأنهم كانوا حين يتحدثون بها معجبين بما تحتوي عليه من خصال المروءة والرجولية ، وهي اذن تدل على ما كان لديهم من قيم اجتماعية .

قصة حسن كبريت :

إنّ قصة حسن كبريت قد تصلح أن تكون من بعض الوجوه نموذجاً للقيم الاجتماعية التي كانت سائدة في تلك الأيام . فقد كان هذا الرجل من أشقياء الكاظمية ، عاش في أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال البريطاني ، وتدل

الروايات الكثيرة التي يتناقلها الناس حوله أنه كان سفاكاً للدماء من طراز ذلك الرجل الذي يقتل القتيل ويمشي في جنازته. وتشير بعض القرائن الىٰ أنه كان مصاباً بمرض «الصادية» اذ كان يتلذذ بالقتل وسفك الدماء، وقيل إنّه عندما اشترك مع «المجاهدين» في واقعة الشعيبة أثناء الحرب العالمية الأُولىٰ كان لا يكتفي بقتل جنود الأعداء، بل كان يقطع رؤوسهم ويأتي بها الىٰ رجال الدين الذين كانوا مع «المجاهدين» وكان رجال الدين يتقززون من عمله هذا ويمنعونه عنه دون جدوىٰ.

سأله سائل [١] في أواخر عمره عن عدد ضحاياه وكيف سيواجه ربه يوم القيامة فكان جوابه أنه قتل من الناس عدداً كبيراً ولكن له أملاً في أن اللّه سيغفر له ذنوبه بشفاعة فاطمة الزهراء بنت النبي، ثم قص قصته التي يأمل بها الشفاعة وهي أنه ذهب ذات ليلة مع رفاق له من أشقياء بغداد للسطو علىٰ بيت أحد الأغنياء هناك، ولما أتم السرقة عاد الىٰ الكاظمية عن طريق مقبرة الشيخ معروف، وكانت المقبرة يومذاك بعيدة عن العمران، فسمع من بين القبور صوت فتاة تستغيث وتتوسل بفاطمة الزهراء وأدرك أن رجلاً فظاً كان يريد اغتصابها وهي عذراء غير مكترث لتوسلاتها. وعند هذا قرر حسن كبريت أن يضيف الىٰ قائمة ضحاياه واحداً «من أجل فاطمة الزهراء» فأسرع الىٰ الرجل من ورائه وأغمد الخنجر في خصره فقتله فوراً وأخذ الفتاة الىٰ أهلها سالمة...

أرجح الظن أن حسن كبريت مات وهو واثق من أنه سينال الشفاعة المنشودة ويدخل الجنة. ولا يزال في العراق كثير من أمثاله، إذ هم ينجرفون فيما اعتادوا عليه من أخلاق الجاهلية فينهبون ويعتدون ويقتلون، ثم يقومون بعمل يرجون منه شفاعة أحد المقربين الىٰ اللّه في زعمهم، فيغفر اللّه ذنوبهم جميعاً ـ «إن اللّه غفور رحيم»!

---

(١) حدثني بهذا رجل أثق به كان قد أدرك حسن كبريت في شيخوخته عندما ترك الشقاوة عن عجز.

لا لوم عليهم في ذلك ، إذ هم مضطرون اليه بحكم ظروفهم القاهرة . فهم من جهة قد نشأوا على أخلاق الجاهلية ، واعتادوا عليها فلا يستطيعون أن يحيدوا عنها ، وهم من الجهة الأخرى يخشون اللّه وعذاب الجحيم ، ولابد لهم اذن من وسيلة تنجيهم من هذه الورطة الكبرى . ان مبدأ الشفاعة ـ كما أشرنا اليه من قبل ـ يشبع حاجة نفسية فيهم ولولاه لشعروا بالضياع !

* * *

www.ketab.ir

محتويات الكتاب

مقدمه الكتاب ٥
من معالم التراث القديم ٦
بين الحكومة والشعب ١٠
نظرة مستقبلية ١٣
الفصل الأول : من تاريخ الدولة العثمانية (أحداث مصر والشام) ١٥
ظهور محمد علي ١٨
محاربة الوهابيين ٢١
مؤتمر الدرعية ٢٤
حرب اليونان ٢٥ ٢٥
محمد علي يعلن العصيان ٢٩
السلاح الديني ٣١
فتح بلاد الشام ٣٣
طبيعة العهد الجديد ٣٥
الليدي استانهوب ٣٩
المشكلة الطائفية ٤١
نتائج الثورات ٤٣
مقتل الراهب الكبوشي ٤٥
موقعة نزيب ٤٧
الانحدار بعد القمة ٤٩
مذابح الستين ٥١
مصر بعد محمد علي ٥٤
الفصل الثاني: من تاريخ الدولة العثمانية (الصراع بين القديم والجديد) ٥٩
الصراع في الدولة العثمانية ٦١
عهد التنظيمات ٦٢
السرستراتفورد كانن ٦٥
حرب القرم ٦٦
جهاد الكفار ٦٨
الاحتفال بالتحالف ٧٠

www.ketab.ir

من نتائج حرب القرم ٧٢
خط همايون ٧٤
السلطان عبد العزيز ٧٦
زيارته لأوربا ٧٨
ظهور مدحت باشا ٨٠
خلع السلطان ٨٤
قمة الصراع ٨٧
٨٩

الفصل الثالث: ولاية علي رضا باشا

جلاوزة الوالي ٩٤
انتفاضة جميل زادة ٩٧
الثمرة الناضجة ١٠٢
عنزة تهدد بغداد ١٠٤
معركة داخل بغداد ١٠٦
طاعة السلطان ١١١
بين الرفض والتسنن ١١٥
الطقوس الشيعية ١١٨
١٢١

الفصل الرابع : ولاية نجيب باشا

واقعة كربلاء ١٢٥
تفاصيل الواقعة ١٢٨
ماذا قال الشعراء ١٣٢
معاهدة أرض روم الثانية ١٣٦
مسح الحدود ١٣٨
عقائد الشيخين ١٤٠
التبشير بالظهور ١٤٢
ظهور الباب ١٤٤
محاكمة في بغداد ١٤٨
مظاهرة باب الشيخ ١٦٠
١٦٣

الفصل الخامس : قرة العين

اعتناقها الدعوة البابية ١٦٥
وجهة النظر الأخرى ١٧٤
قرة العين في بغداد ١٨٠
انشقاق آخر ١٨٢

www.ketab.ir

اخراجها من العراق ١٨٣
قرة العين في كرمانشاه ١٨٥
قرة العين في همدان ١٨٧
قرة العين تهجر زوجها ١٨٨
مقتل الملا محمد تقي ١٨٩
مؤتمر انديمشك ١٩٧
مصير قرة العين ١٩٩
كلمة تقييم ٢٠٢
الفصل السادس: عشرون سنة ٢٠٥
نامق باشا ٢٠٥
عزل نامق باشا ٢٠٧
رشيد باشا ٢٠٨
تأثير حرب القرم ٢١٣
بهاء الله في بغداد ٢١٦
الدعوة البابية في العراق ٢١٨
ملكم خان في العراق ٢٢٢
ولاية عمر باشا ٢٢٤
عزل عمر باشا ٢٣١
تنافس على الولاية ٢٣٣
نامق باشا للمرة الثانية ٢٣٦
بين البابيين والشيعة ٢٣٨
تسفير بهاء الله ٢٤٠
نامق باشا وآل سعدون ٢٤٢
توديع نامق باشا ٢٤٣
بين القاضي والقنصل ٢٤٥
الفصل السابع: ولاية مدحت باشا ٢٤٩
ثورة في بغداد ٢٥٣
ثورة الفرات الأوسط ٢٥٥
ملاحظة اجتماعية ٢٥٨
تشييد مدينة الناصرية ٢٦٤
فتح الإحساء ٢٦٦
ثورة شمر ٢٦٩
زيارة الشاه ٢٧٠

www.ketab.ir

مشكلة نقل الجنائز ٢٧٣
أعمال مدحت باشا ٢٧٥
استقالة مدحت باشا ٢٧٧
الملحق الأول: المجتمع المصري أثناء الاحتلال الفرنسي ٢٨١
قدوم الاسطول الفرنسي ٢٨٢
الحالة في مصر ٢٨٣
منشور نابليون ٢٨٦
معركة الاهرام ٢٩٠
الإفرنج في القاهرة ٢٩٢
نابليون والإسلام ٢٩٥
جاك عبد الله مينو ٢٩٧
المجمع العلمي المصري ٢٩٩
مخترعات الحضارة ٣٠١
أسباب الثورات ٣٠٣
ثورة القاهرة الأولى ٣٠٨
القضاء على الثورة ٣١٠
ظهور المهدي ٣١٣
معركة أبي قير ٣١٤
الجنرال كليبر ٣١٦
عهد عبد الله مينو ٣١٨
الجلاء عن مصر ٣١٩
الملحق الثاني حول طبيعة الإنسان ٣٢٣
الشعور بالذات ٣٢٦
الخلل في تكوين الذات ٣٢٨
التغلف الذاتي ٣٣١
الجنون والعقل ٣٣٤
العامية والتفرد ٣٣٦
الأنانية والغيرية ٣٣٩
الإنسان والدين ٣٤١
التنازع البشري ٣٤٥
سبب التنازع ٣٤٧
تركيب الشخصية ٣٤٩
الخاتمة ٣٥٣

www.ketab.ir